

## الإرادة ليكي نُؤمِن

المحاضرة ٧: إرادة مُنْقَسِمَةٌ؟

أ.ر. سي. سرول

في مُحاضرة اليوم، سَتَتَنَاوَلُ نَظْرَةَ كَنِيسَةِ رُومَا الكاثوليكيَّةِ إِلَى الإرادة، وَعَلَاقَتَهَا بِالْحُطْبَةِ الْأَصْلِيَّةِ. وَبُوصُولِنَا إِلَى هَذَا الْجُزْءِ مِنْ اسْتِطْلَاعِنَا التَّارِيخِيَّ، نَصْطِدِمُ فِي الْحَالِ بِمُشْكَلَةٍ، لِأَنَّ هُنَاكَ بَعْضَ الْعُمُوضِ فِي الْفَهْمِ الكاثوليكيِّ لِعَلَاقَةِ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ بِالْحُطْبَةِ الْأَصْلِيَّةِ. تَزْدَادُ الْمُشْكَلَةُ تَعْقِيدًا لِلْسَبَبِ التَّالِي: رَأَيْنَا أَنَّهُ فِي الْجَدَلِ الْبِيلاجِيِّ/الأوغسطينيِّ، أَدَانَتْ الْكَنِيسَةُ بِيلاجيوسَ بِالْهَرْطَقَةِ، وَبَرَّاتُ أَوْغُسْطِينُوسَ. وَلَمْ تَكْتَفِ الْكَنِيسَةُ الكاثوليكيَّةُ بِإِدَانَةِ بِيلاجيوسَ آنذاك، لَكِنَّهَا كَرَّرَتْ تِلْكَ الْإِدَانَةَ بِاسْتِمْرَارٍ وَوُضُوحٍ عَبْرَ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ. وَفِي الْوَاقِعِ، إِنَّ الْإِقْرَارَاتِ الثَّلَاثَةَ الْأُولَى الَّتِي صَدَرَتْ فِي الْجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ مِنْ مَجْمَعِ ثِرَنْتِ عَنِ التَّبَرِيرِ بَدَلَتْ جُهْدًا مُضَاعَفًا لِإِعَادَةِ التَّأَكِيدِ عَلَى رَفْضِ الْكَنِيسَةِ لِلْبِيلاجِيَّةِ الْبَحْتَةِ. وَرَأَيْنَا مُؤَخَّرًا أَيْضًا، فِي مُحَاوَرَةٍ سَابِقَةٍ، أَنَّ الْكَنِيسَةَ الكاثوليكيَّةَ أَدَانَتْ شِبْهَ الْبِيلاجِيَّةِ فِي سِنُودِ أَوْرَانْجِ لِعَامِ ٥٢٩. وَبِهَذَا الرِّفْضِ الشَّدِيدِ، مُنْذُ قُرُونٍ مَضَتْ، لِلْبِيلاجِيَّةِ وَشِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ، رُبَّمَا تَتَوَقَّعُ اسْتِمْرَارُ الْكَنِيسَةِ فِي قَبُولِهَا لِلرَّأْيِ الْأَوْغُسْطِينِيِّ. لَكِنْ فِي عَصْرِ الْإِصْلَاحِ، وَفِي أَيَّامِ مَجْمَعِ ثِرَنْتِ، يَبْدُو أَنَّ الْكَنِيسَةَ، بِإِدَانَتِهَا لِلْوَتْرِ وَلِرَّأْيِ الْمُصْلِحِينَ فِي هَذَا الشَّانِ، رَفَضَتْ بِالتَّبَعِيَّةِ الرَّأْيَ الْأَوْغُسْطِينِيِّ أَيْضًا. وَفِي حَالٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي ثِرَنْتِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، صَارَ وَاضِحًا تَمَامًا، فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، فِيمَا سُمِّيَ بِالْجَدَلِ الْيَنْسِينِيِّ ( Jansenist controversy)، الَّذِي سَتَتَنَاوَلُهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، أَنَّ رُومَا أَدَانَتْ أَيْضًا رَأْيَ أَوْغُسْطِينُوسَ. يَثْرُكُنَا هَذَا أَمَامَ سُؤَالٍ. فَإِنَّهُ يَبْدُو، بِحَسَبِ الظَّاهِرِ عَلَى الْأَقْل، أَنَّ كُلَّ الْخِيَارَاتِ الْمُتَّاحَةِ لِفَهْمِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْحُطْبَةِ الْأَصْلِيَّةِ أُدِينَتْ فِي وَقْتٍ أَوْ آخَرَ مِنْ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ الكاثوليكيَّةِ، فَمَا الرَّأْيُ الَّذِي تَبَيَّنَتْهُ إِذَنْ؟

حَسَنًا، غَالِبِيَّةُ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّيْنِ يَعْتَبِرُونَ أَنَّ الْلاهُوتَ الكاثوليكيَّ عَادَ إِلَى تَبَيُّنِ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ شِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ، فِي تَعَارُضٍ إِذَنْ مَعَ مَاضِيهِ. لَكِنْ مُجَدِّدًا، تُعَانِي كَنِيسَةُ رُومَا مِنْ مُشْكَلَةٍ بِسَبَبِ ادِّعَائِهَا الْعِصْمَةَ. وَبَادِعَائِهَا عِصْمَةَ تَعْلِيمِهَا، هِيَ تُعَانِي مِنْ هِيْمُوفِيلِيَا لَاهُوتِيَّةٍ. فَإِنْ خَدَشْتَهَا، سَتَنْزِفُ حَتَّى الْمَوْتِ. لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ أَيْةُ كَنِيسَةٍ مَعْصُومَةٍ، تَكُونُ عَاجِزَةً عَنِ ارْتِكَابِ أَخْطَاءٍ فِي تَعْرِيفِهَا الرَّسْمِيِّ لِلْعَقَائِدِ. لَكِنْ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْكَنِيسَةُ قَدْ أَدَانَتْ عَبْرَ التَّارِيخِ كُلَّ الْخِيَارَاتِ الْمُتَّاحَةِ، فَهِيَ عَلَى الْأَرْجَحِ قَدْ ارْتَكَبَتْ خَطَأً، وَهَذَا يَتَعَارَضُ مَعَ عِصْمَتِهَا.

لَكِنْ، لِنَصْرِفِ بَضْعَ لِحَظَاتٍ فِي النَّظَرِ إِلَى بَعْضِ التَّصْرِيحَاتِ الَّتِي أَدَلَّتْ بِهَا رُومَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفَهْمِ عِلَاقَةِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ بِالْحُطْبَةِ الْأَصْلِيَّةِ. وَسَتَنْطَرُقُ أَوَّلًا إِلَى مَجْمَعِ ثِرَنْتِ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. أَوْدُ أَنْ أُخَصِّصَ وَقْتًا لِقِرَاءَةِ الْإِقْرَارِ الرَّابِعِ مِنَ الْجُلُوسَةِ السَّادِسَةِ لِمَجْمَعِ ثِرَنْتِ. تَذَكَّرُوا أَنِّي أُشْرْتُ مُنْذُ قَلِيلٍ إِلَى الْإِقْرَارَاتِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى، الَّتِي تَصَمَّتِ

الْحَرَمَانَ وَالْأَثِيمَا الَّذِي فَرَضْتُهُ الْكَيْسَةَ عَلَى الْبِدْعِ وَالْهَرْطَقَاتِ. وَهِيَ تَتَّبِعُ التَّنْسِيقَ نَفْسَهُ، وَتَبْدَأُ دَائِمًا بِعِبَارَةٍ: "إِنْ قَالَ أَحَدٌ"، ثُمَّ تُكْرَرُ مَا قِيلَ، وَتَحْتَمُّ بِقَوْلِهَا: "فَلَيْكُنْ أَنَاثِيمًا".

كَمَا ذَكَرْتُ قَبْلًا، شَجَبَتْ إِقْرَارَاتُ ثُرُنْتِ الثَّلَاثَةُ الْأُولَى الْبِيلاجِيَّةَ. وَفِي الْإِقْرَارِ الرَّابِعِ، يَبْدُو أَنَّ الْهُجُومَ كَانَ مُوجَّهًا ضِدَّ الْمُصْلِحِينَ. لَكِنَّا نَجِدُ بَعْضَ الْعُمُوضِ فِي هَذَا الْإِقْرَارِ بِالذَّاتِ. وَهُوَ يَقُولُ: "إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ حُرِّيَّةَ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ، حِينَ يَدْفَعُهَا اللَّهُ وَيُنَبِّهُهَا، لِتَقْبَلَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَعَمَلَهُ، لَا تَتَعَاوَنُ بِأَيِّ حَالٍ فِي الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّأَهُبِ لِلْحُصُولِ عَلَى نِعْمَةِ التَّبْرِيرِ، وَإِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الرَّفْضَ إِذَا أَرَادَتْ ذَلِكَ، بَلْ تَكُونُ جَامِدَةً لَا تَفْعَلُ شَيْئًا، وَسَلْبِيَّةً تَمَامًا، فَلَيْكُنْ مَحْرُومًا".

لَا أَعْلَمُ إِلَى أَيِّ مَدَى اسْتَطَعْتُمْ مُتَابَعَةَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ مُعَقَّدٌ نَوْعًا مَا. وَإِحْدَى الْمَشْكِلاتِ الَّتِي نُوَاجِهُهَا مَعَ أَحْكَامِ الْحَرَمَانَاتِ الَّتِي صَدَرَتْ ضِدَّ الْمُصْلِحِينَ، فِي مَجْمَعِ ثُرُنْتِ فِي الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، هِيَ أَنَّ الْكَثِيرَ جِدًّا مِنْ هَذِهِ الْحَرَمَانَاتِ انْطَوَتْ عَلَى نَوْعٍ مِنْ إِطْلَاقِ النَّارِ الْعَشَوَائِيِّ. فَبَعْضُ الرِّصَاصَاتِ لَا تُصِيبُ أَبَدًا رَأْيَ الْمُصْلِحِينَ، لَكِنَّ الْقَلِيلَ مِنَ الرِّصَاصَاتِ الْأُخْرَى يُصِيبُ الْهَدَفَ تَمَامًا.

وَالآنَ، لِنَتَنَاوَلَ بِعِنَايَةٍ عَنَّا صِرَ هَذَا التَّصْرِيحِ: "إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ حُرِّيَّةَ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ، حِينَ يَدْفَعُهَا اللَّهُ وَيُنَبِّهُهَا، لِتَقْبَلَ دَعْوَةَ اللَّهِ وَعَمَلَهُ، لَا تَتَعَاوَنُ بِأَيِّ حَالٍ فِي الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّأَهُبِ لِلْحُصُولِ عَلَى نِعْمَةِ التَّبْرِيرِ". دَعْوِي أَتَوَقَّفُ هُنَا. أَحَدُ الْأُمُورِ الَّتِي أَكَّدْتُهَا رُومًا هُوَ أَنَّ الْإِرَادَةَ يَجِبُ أَنْ تَتَعَاوَنَ مَعَ نِعْمَةِ اللَّهِ، الَّتِي تُعْطَى فِي التَّبْرِيرِ، حَتَّى تَخْلُصَ. ذَكَرَ هَذَا سَابِقًا فِي الْمَجْمَعِ، فِي الْحَدِيثِ عَن وَفُوعِ التَّبْرِيرِ أَوَّلًا عِنْدَ نَوَالِ الشَّخْصِ سِرِّ الْمَعْمُودِيَّةِ. فَمِنْ أَهْدَافِ سِرِّ الْمَعْمُودِيَّةِ تَطْهِيرُ النَّفْسِ مِنَ الْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ. وَفِي الْمَعْمُودِيَّةِ، بِحَسَبِ رُومًا، تُغْرَسُ النِّعْمَةُ دَاخِلَ النَّفْسِ، أَوْ تُسَكَّبُ دَاخِلَ النَّفْسِ. وَدُونَ هَذِهِ النِّعْمَةِ، لَا يَقْدِرُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا يُرْضِي بِهِ الرَّبَّ. مَرَّةً أُخْرَى، هَذَا نَقِيضُ الْبِيلاجِيَّةِ تَمَامًا. فَالنِّعْمَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلخَّلَاصِ، وَالنِّعْمَةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلتَّبْرِيرِ. لَكِنِ كَيْ يَحْدُثُ التَّبْرِيرُ، بِحَسَبِ كَنِيسَةِ رُومًا، لَا بَدَّ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي تُغْرَسُ فِي النَّفْسِ أَنْ تُقَابَلَ بِاسْتِجَابَةٍ مِنَ الشَّخْصِ. وَتُعْرَفُ رُومًا تِلْكَ الْإِسْتِجَابَةُ بِأَنَّهَا "التَّعَاوُنُ مَعَ" وَ"قَبُولُ" هَذَا التَّبْرِيرِ. وَالْكَلِمَتَانِ هُمَا "كُوْبِيرَارِي" (*cooperare*) و"أَسِينْتَارِي" (*assentare*). وَيَجِبُ أَنْ يَصِلَ التَّعَاوُنُ وَالْقَبُولُ إِلَى حَدٍّ أَنْ يَصِيرَ الشَّخْصُ، بِمُسَاعَدَةِ النِّعْمَةِ، بَارًّا بِطَبِيعَتِهِ. وَفَقَطْ عِنْدَمَا يَكُونُ بَارًّا بِطَبِيعَتِهِ، يُعْلِنُ اللَّهُ أَنَّهُ بَارٌّ.

لِنُعِدِ الْآنَ إِلَى الْإِقْرَارِ الرَّابِعِ: "إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ حُرِّيَّةَ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ لَا تَتَعَاوَنُ بِأَيِّ حَالٍ فِي الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّأَهُبِ لِلْحُصُولِ عَلَى نِعْمَةِ التَّبْرِيرِ...". هُنَا يَكْمُنُ الْعُمُوضُ. فَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ نِعْمَةِ التَّبْرِيرِ. لَكِنِ هَلْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ نِعْمَةِ التَّجْدِيدِ اللَّازِمَةِ لِحَيَاءِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ؟ أَمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ تَعَاوُنِ يَتِمُّ بَعْدَ التَّجْدِيدِ؟ دَعْوِي أُحَاوِلُ تَوْضِيحَ ذَلِكَ لِمَّا لَا يَحْتَلِظُ الْأَمْرُ عَلَيْكُمْ.

وَفَقًّا لِلْمُصْلِحِينَ، الْإِنْسَانُ مَيِّتٌ بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، وَنَاقَرُ تَمَامًا مِنْ أُمُورِ اللَّهِ، وَمُسْتَعْبِدٌ لِلْخَطِيئَةِ، وَيُعَانِي مِنَ الْعَجْزِ الْأَخْلَاقِيِّ عَنِ أَنْ يَسْتَحِثَّ نَفْسَهُ، أَوْ يَسْتَيْمِلَهَا، أَوْ يَنْبَهَهَا بِأَيِّ شَكْلِ، لِتُقْبَلَ إِلَى أُمُورِ اللَّهِ، إِلَى أَنْ يُوقِظَهُ اللَّهُ أَوَّلًا مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ بِالتَّجْدِيدِ.

وَالسُّوَالُ هُوَ: "هَلْ تَقُولُ رُومًا إِنَّهُ كَيْ يَتَجَدَّدَ أَحَدُهُمْ، يَجِبُ أَنْ يَتَعَاوَنَ مَعَ النِّعْمَةِ الَّتِي يُعْطِيهِ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ أَمْ إِنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي تُحْيِي مِنَ الْمَوْتِ تَعْمَلُ بِشَكْلِ أَحَادِيٍّ - كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَحَاضِرَةِ السَّابِقَةِ - وَتَنْقُلُ هَذَا الشَّخْصَ بِفَاعِلِيَّةٍ مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ إِلَى الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ؟ أَمْ إِنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ فَقَطْ تُعَيِّنُ الْإِنْسَانَ السَّاقِطَ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ إِلَى حَالَةِ الْخُلَاصِ، بِتَعَاوُنٍ وَقُبُولٍ مِنَ الْإِرَادَةِ؟" هَذِهِ هِيَ نُقْطَةُ الْخِلَافِ.

مَا يَزِيدُ الْأَمْرَ تَشْوِيشًا هُوَ قَوْلُهُ أَيْضًا: "لَا تَتَعَاوَنُ بِأَيِّ حَالٍ فِي الْإِسْتِعْدَادِ وَالتَّأَهُبِ لِلْحُصُولِ عَلَى نِعْمَةِ التَّبْرِيرِ، وَإِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الرِّفْضَ إِذَا أَرَادَتْ ذَلِكَ". أَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ. يَتَّفِقُ مُعْظَمُ الْمُؤَرِّخِينَ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ هُوَ الْمَفْهُومُ الْقَدِيمُ عَنِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ، الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى أَوْغُسْطِينُوسِ، حَيْثُ عَلَّمَ أَوْغُسْطِينُوسُ بِأَنَّ النِّعْمَةَ الَّتِي يَتَحَرَّرُ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ، وَيُعْتَقُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، هِيَ عَمَلٌ أَحَادِيٍّ يُجْرِيهِ اللَّهُ، وَهِيَ فَعَالَةٌ تَمَامًا. وَبِأَنَّهُ حِينَ يُغَيِّرُ اللَّهُ الْقَلْبَ الْبَشَرِيَّ، يَتَجَاوَبُ هَذَا الْقَلْبُ مَعَ الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ. وَلَا حَقًّا، دُعِيَ هَذَا الْمَفْهُومُ "النِّعْمَةَ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ".

إِنَّ مَفْهُومَ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا تُقَاوَمُ، كَمَا سَرَى لَاحِقًا عِنْدَ حَدِيثِنَا عَنْ جُونِ كَالْفِنِ، لَا يَعْنِي أَنَّ الْخَطَاةَ السَّاقِطِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ مُقَاوَمَةَ النِّعْمَةِ الَّتِي يُحْيِينَا بِهَا اللَّهُ مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ إِلَى الْحَيَاةِ الرُّوحِيَّةِ. فَلَوْ تَرَكْنَا الْأَمْرَ لَنَا، لَقَاوَمْنَاهَا بِكُلِّ قُوَّتِنَا. لَكِنْ يَتَعَلَّقُ الْأَمْرُ بِمَا إِنَّ كَانَتِ النِّعْمَةُ الَّتِي يُمَارِسُهَا اللَّهُ فَعَالَةً. فَهَلْ تَتَغَلَّبُ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْإِنْسَانِ لَهَا فِي حَالَتِهِ السَّاقِطَةِ؟ أَمْ هُنَاكَ تَعَاوُنٌ يَتِمُّ بَيْنَ النِّعْمَةِ الْمُنُوَّحَةِ وَتَجَاوُبِ الْإِنْسَانِ، بِحَيْثُ يَكُونُ هَذَا التَّجَاوُبُ، أَيْ الْإِسْتِجَابَةَ الْإِجَابِيَّةَ، وَعَدَمَ مُقَاوَمَةِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، شَرْطًا أَسَاسِيًّا لِلتَّجْدِيدِ الرُّوحِيِّ؟ يَقُولُ أَوْغُسْطِينُوسُ إِنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ فَعَالَةٌ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ ثُومَا الْأَكُوْبِيَّيَّ عَلَّمَ الشَّيْءَ ذَاتَهُ، وَإِنَّ الْخَطْوَةَ الْأُولَى لِلنِّعْمَةِ، أَيْ الْمُبَادَرَةَ الْإِلَهِيَّةَ، هِيَ مَا نُسَمِّيهِ بِالتَّجْدِيدِ، الَّذِي بِهِ يُجْرِي اللَّهُ عَمَلًا فَائِقًا لِلطَّبِيعَةِ وَمُبَاشِرًا، لِيُغَيِّرَ مِيُولَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، بِحَيْثُ يُقَدِّمُ الْإِنْسَانَ حَتْمًا اسْتِجَابَةً إِجَابِيَّةً لِلَّهِ وَلِلْمَسِيحِ.

نَأْتِي إِلَى عِبَارَةِ "لَا تَسْتَطِيعُ الرِّفْضَ"، أَوْ "لَا تَسْتَطِيعُ... مَا الْمَقْصُودُ تَحْدِيدًا؟" "لَا تَسْتَطِيعُ الرِّفْضَ إِذَا أَرَادَتْ ذَلِكَ". حَسَنًا، لَمْ يَقْصِدْ أَحَدٌ قَطُّ أَنَّ الْخَاطِئَ يَعْجَزُ عَنِ رَفْضِ النِّعْمَةِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْفُضَهَا. فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُ إِذَا ظَلَّ الْخَاطِئُ رَاغِبًا فِي رَفْضِ نِعْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ سَيَرْفُضُهَا. لَكِنْ مَا يَقْصِدُهُ أَوْغُسْطِينُوسُ هُنَا، وَمَا قَالَهُ الْمُصْلِحُونَ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، هُوَ أَنَّ عَمَلَ النِّعْمَةِ يُغَيِّرُ مِيُولَ النَّفْسِ، بِحَيْثُ فِي حِينٍ لَمْ تَشَأْ النَّفْسُ قَبْلًا أَنْ تَتَعَاوَنَ مَعَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ تَقْبَلَ اللَّهَ،

أَوْ أَنْ تَتَجَدَّدَ، يَقُومُ اللَّهُ فِي التَّجْدِيدِ بِتَغْيِيرِ رَغْبَةِ الْقَلْبِ. فَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يُحْضِرُ إِلَيْهِ شَخْصًا لَا يُرِيدُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِ. لَكِنَّ عَمَلَ التَّجْدِيدِ يُغَيِّرُ الرَّغْبَةَ، لِذَرَجَةِ أَنَّ الشَّخْصَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ رَاغِبًا قَبْلًا فِي أَنْ يَأْتِيَ إِلَى الْمَسِيحِ صَارَ لَيْسَ فَقَطْ رَاغِبًا فِي ذَلِكَ، لَكِنَّهُ يَهْرَعُ إِلَى الْمَسِيحِ لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَا يُرِيدُهُ تَمَامًا.

لِذَا، يَدِينُ هَذَا الْإِفْرَارُ حُجَّةً وَهَيْبَةً. لَكِنْ حِينَ نَصَلُ إِلَى نَهَايَةِ الْإِفْرَارِ، نَصَلُ إِلَى أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ بِقَضِيَّةِ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ. "بَلْ تَكُونُ جَامِدَةً لَا تَفْعَلُ شَيْئًا، وَسَلْبِيَّةً تَمَامًا، فَلْيَكُنْ مُحْرَمًا". لَمْ يُؤْمِنْ سِوَاءَ أَوْعُسْطِينُوسِ أَوْ الْمُصْلِحُونَ بِأَنَّ إِرَادَةَ الْإِنْسَانِ السَّاقِطِ جَامِدَةٌ. فَهِيَ حَيَّةٌ بِيُولُوجِيًّا، لَكِنَّهَا مَيِّتَةٌ رُوحِيًّا. وَمَعَ ذَلِكَ، هِيَ لَيْسَتْ شَيْئًا جَامِدًا بِلَا قُوَّةٍ. لَكِنَّهَا نَشِطَةٌ وَعَامِلَةٌ. فَهِيَ تَحْتَارُ وَتَتَّخِذُ قَرَارَاتٍ. وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، هِيَ حَيَّةٌ وَلَيْسَتْ جَامِدَةً. لَكِنْ شَدَّدَ أَوْعُسْطِينُوسُ وَالْمُصْلِحُونَ عَلَى أَنَّهُ عِنْدَ نُقْطَةِ الْإِلْتِقَاءِ بَيْنَ نِعْمَةِ اللَّهِ الْمَجْدَدَةِ وَتَحَرُّرِ الْخَاطِئِ مِنَ الْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ تَكُونُ النَّفْسُ سَلْبِيَّةً تَمَامًا.

سَبَقَ أَنْ اسْتُخْدِمَتْ الْمِثَالُ الْمُتَعَلِّقُ بِسَلْبِيَّةِ لِعَازِرٍ حِينَ أُقِيمَ مِنَ الْمَوْتِ. فَعِنْدَمَا وَقَفَ الْمَسِيحُ خَارِجَ قَبْرِ لِعَازَرَ، لَمْ يُحَاوِلْ إِفْتِنَاعَهُ بِالْخُرُوجِ، أَوْ يَمُدَّ لَهُ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ لِيُخْرِجَ مِنَ الْقَبْرِ، بَلْ وَلَمْ يَدْخُلْ إِلَى الْقَبْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَلْمَسْهُ مِنْ خِلَالِ الْقَمِّ، مُنْتَظِرًا مُوَافَقَةَ لِعَازَرَ، وَقُبُولَهُ، وَتَعَاوُنَهُ مَعَ قُوَّةِ الْمَسِيحِ لِيَقُومَ مِنَ الْمَوْتِ. بَلْ عِنْدَمَا نَادَاهُ الْمَسِيحُ لِيُخْرِجَ مِنَ الْقَبْرِ، كَانَ لِعَازَرُ مَيِّتًا وَسَلْبِيًّا تَمَامًا. وَفَقَطْ حِينَ أُعِيدَ إِلَى الْحَيَاةِ، صَارَ الْجُثْمَانُ السَّلْبِيَّ إِجْبَائِيًّا.

إِذَنْ، يَحْسَبُ أَوْعُسْطِينُوسُ وَالْمُصْلِحِينَ، وَبِحَسَبِ هَذَا التَّشْبِيهِ، يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ الشَّخْصَ الْمُسْتَعْبَدَ رُوحِيًّا، وَالْمَيِّتَ رُوحِيًّا، يَكُونُ سَلْبِيًّا، إِلَى أَنْ يَقِيمَهُ اللَّهُ الرُّوحُ الْقُدُسُ مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ.

وَبَعْدَمَا يُجْرِي اللَّهُ عَمَلَ النِّعْمَةِ الْفَائِقِ لِلطَّبِيعَةِ، لَا يَعُودُ الشَّخْصُ سَلْبِيًّا. فَالشَّخْصُ الَّذِي يُحْيِيهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ رُوحِيًّا يَبْدَأُ فِي الْعَمَلِ، وَيَتَحَرَّكُ، وَيَحْتَارُ، وَيَرْعَبُ، وَيَقْبَلُ الْمَسِيحَ، لِأَنَّهُ تَحَرَّرَ فِعْلِيًّا مِنْ حَالَةِ الْمَوْتِ. لَكِنْ فِي الْخُطْوَةِ الْأُولَى، وَفِي الْمُبَادَرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، أَصَرَ أَوْعُسْطِينُوسُ عَلَى أَنَّ الْخُطْوَةَ الْأُولَى هِيَ عَمَلٌ أَحَادِيثِيٌّ. فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ مَنْ يَقُومُ بِالْعَمَلِ، وَالْإِنْسَانُ يَكُونُ سَلْبِيًّا، إِلَى أَنْ يُجْرَى فِيهِ هَذَا الْعَمَلِ.

نَتَقَبَّلُ إِلَى فِتْرَةٍ لِاحِقَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، إِلَى الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، كَمَا ذَكَرْتُ، الَّذِي حَدَّثَتْ فِيهِ تَطَوُّرَاتٌ أُخْرَى فِي الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ. أَوَّلًا، كَانَ هُنَاكَ لَاهُوتِيٌّ يُدْعَى مَايْكِلَ بَايُوسَ (Michael Baius)، أَدَانَتْهُ الْكَنِيسَةُ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ. فَقَدْ أُدِينَتْ ٧٩ أَطْرُوحَةً لَهُ فِي مَرْسُومِ بَابُويِّ، أَصْدَرَهُ الْبَابَا بِيُوسَ الْخَامِسُ (Pope Pius V). وَمِنْ أَطْرُوحَاتِ بَايُوسَ الَّتِي أَدَانَتْهَا الْكَنِيسَةُ: (١) أَنَّ الْإِرَادَةَ دُونَ النِّعْمَةِ لَا يُمَكِّنُهَا سِوَى أَنْ تُحْطَى؛ (٢) أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ

مَنْ يَسْتَحِثُّ الْخَاطِئَ وَيُجِيبُهُ. أَرَادَ بَايُوسُ أَنْ يَقُولَ، فِي اعْتِمَادِ مُبَاشِرٍ عَلَى مَا قَالَهُ أَوْغُسْطِينُوسُ قَبْلَ هَذَا بِقُرُونٍ، إِنَّهُ يَدُونُ النِّعْمَةَ الْمَجْدَّدَةَ، يَكُونُ الْخَاطِئُ حُرًّا فَقَطْ لِارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ. هَذِهِ الْأَطْرُوحَةُ الَّتِي نَادَى بِهَا أَوْغُسْطِينُوسُ أَوَّلًا، ثُمَّ رَدَّدَهَا بَايُوسُ فِي الْقُرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ، أُدِينَتْ بِمُوجِبِ مَنَشُورِ بَابُويِّ.

فِي الْقُرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ أَيْضًا، رَأَيْنَا مَا يُعْرَفُ بِاسْمِ الْجَدَلِ الْيُنْسِينِيِّ. وَالْجَدَلُ الْيُنْسِينِيُّ -مِثْلَمَا يُوجِي الْإِسْمُ- مُرْتَبِطٌ بِفِكْرِ لَاهُوتِيٍّ يُدْعَى يَنْسِنُ (Jansen). وَالْيُنْسِينِيُّونَ، الَّذِينَ كَانُوا مَقْرُومَ الرَّيْسِيِّ فِي فَرَنْسَا، كَانُوا حِزْبًا مِنَ الْمَفْكَرِينَ الْكَاثُولِيكِيِّينَ، الَّذِينَ عَمِلُوا عَلَى إِحْيَاءِ فِكْرِ الْقَدِيدِ أَوْغُسْطِينُوسِ. وَنَظِيرَ الْمُصْلِحِينَ فِي الْقُرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، حَاوَلُوا التَّمَسُّكَ بِالْفِكْرِ الْأَوْغُسْطِينِيِّ عَنِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ. أَلْفَ يَنْسِنِ كِتَابًا عَرَضَ فِيهِ الْعَدِيدَ مِنْ أَوْجُهِ الْإِتْفَاقِ مَعَ الْقَدِيدِ أَوْغُسْطِينُوسِ، وَآلِي عَارِضَهَا الْيَسُوعِيِّونَ آنَدَاكَ.

وَفِي عَامِ ١٦٥٣، أَدَانَ الْبَابَا إِيْنُوسِنْتُ الْعَاشِرُ حَمْسَ (Pope Innocent X) أَطْرُوحَاتٍ لِيَنْسِنِ. دَعُونِي أَدْكُرُ بَعْضَهَا. أَوَّلًا، "مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَى الْأَبْرَارِ أَنْ يُطِيعُوا بَعْضَ وَصَايَا اللَّهِ بِاسْتِخْدَامِ إِمْكَانِيَّاتِهِمْ وَقُدْرَاتِهِمْ الَّتِي يَمْتَلِكُونَهَا. فَهُمْ يَفْتَقِرُونَ إِلَى النِّعْمَةِ الَّتِي تَجْعَلُ الطَّاعَةَ مُمَكِّنَةً". أَدَانَتْ رُومًا هَذَا الْكَلَامَ. ثَانِيًا، "كُلُّ مَنْ هُوَ فِي حَالَةٍ سَاقِطَةٍ لَا يَقْدِرُ الْبَتَّةَ أَنْ يَقَاوِمَ النِّعْمَةَ الدَّاخِلِيَّةَ". مَرَّةً أُخْرَى، أَكَّدَ يَنْسِنُ فِكْرَةَ نِعْمَةِ اللَّهِ الْمَجْدَّدَةِ وَالْفَعَالَةَ، وَأَدِينَ لِأَجْلِ ذَلِكَ. "كَيْ يَنَالَ الْإِنْسَانُ اسْتِحْقَاقًا أَوْ عَدَمَ اسْتِحْقَاقٍ فِي حَالَتِهِ السَّاقِطَةِ، لَا تَلْزَمُهُ حُرِّيَّةٌ مِنَ الضَّرُورَةِ" -سَاشَرَحَ هَذَا الْمَقْهُومَ لِأَحْقًا- "الْحُرِّيَّةَ مِنَ الْإِكْرَاهِ فَعَالَةً". فِي هَذَا، اتَّفَقَ يَنْسِنُ مَعَ لُوتَرِ، وَأَدِينَ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

أَخِيرًا، نَصَلُ إِلَى أَحَدِ تَصْرِيحَاتِ الْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ عَنِ الْإِرَادَةِ، وَنَجِدُهَا فِي الدَّلِيلِ الْجَدِيدِ لِتَعْلِيمِ الْإِيمَانِ الَّذِي نُشِرَ فِي عَامِ ١٩٩٤. الْكَثِيرُ مِنْ أَقْسَامِ هَذَا الدَّلِيلِ تَنَاوَلَتْ مَسْأَلَةَ حُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِ وَمَسْئُولِيَّتِهِ. أَوْدُ لَفَتَ انْتِبَاهَكُمْ إِلَى أَحَدِ هَذِهِ التَّصْرِيحَاتِ، الَّذِي يَقُولُ: "الْحُرِّيَّةُ هِيَ الْقُدْرَةُ، الْمُتَّصِلَةُ فِي الْعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ، عَلَى الْعَمَلِ أَوْ عَدَمِ الْعَمَلِ، وَعَلَى فِعْلِ هَذَا أَوْ ذَاكَ، وَبِالتَّالِي، عَلَى الْقِيَامِ بِأَفْعَالٍ مُتَعَمَّدَةٍ يَتَحَمَّلُ الْمَرْءُ مَسْئُولِيَّتَهَا. فَبِحُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، يُشَكَّلُ الْمَرْءُ حَيَاتَهُ. وَالْحُرِّيَّةُ الْبَشَرِيَّةُ هِيَ قُوَّةٌ لِأَجْلِ النُّمُوِّ وَالتَّقَدُّمِ فِي الْحَقِّ وَالصَّلَاحِ، وَهِيَ تَبْلُغُ كَمَالَهَا بِاتِّجَاهِهَا نَحْوَ اللَّهِ. وَمَا دَامَتِ الْحُرِّيَّةُ لَمْ تَلْزَمْ نَفْسَهَا نَهَائِيًّا بِخَيْرِهَا الْمُطْلَقِ، وَهُوَ اللَّهُ، فَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَخْتَارَ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَأَنْ تَتَقَدَّمَ فِي الْكَمَالِ، أَوْ تُخْفِقَ وَتُخْطِئَ. هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ تُمَيِّزُ الْأَفْعَالَ الْبَشَرِيَّةَ، وَهِيَ الْأَسَاسُ سَوَاءً لِلْمُدْحِ أَوْ اللَّوْمِ، وَسَوَاءً لِلْإِسْتِحْقَاقِ أَوْ التَّوْبِيخِ".

إِلَيْكُمْ النُّقْطَةُ الْفَيْصَلِيَّةُ. فَبِحَسَبِ هَذَا الدَّلِيلِ، لَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ قَادِرًا أَنْ يَخْتَارَ الشَّرَّ أَوْ الْخَيْرَ. وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِخْتِيَارِ بَيْنَهُمَا ظَلَّتْ سَلِيمَةً بَعْدَ السُّقُوطِ. هَذَا التَّصْرِيحُ مُتَعَارِضٌ تَمَامًا مَعَ تَعْلِيمِ أَوْغُسْطِينُوسِ، وَالْمُصْلِحِينَ الْبُرُوتَسْتَانِيَّينَ، الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الْإِنْسَانَ يَظَلُّ حُرًّا لِإِخْتَارِ مَا يَشَاءُ، لَكِنَّ تِلْكَ الْحُرِّيَّةَ تَذْهَبُ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ فَقَطْ،

وَهُوَ الْإِخْتِيَارُ بَيْنَ شُرُورٍ بَدِيلَةٍ. لَكِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَمَتَّعُ بِقُدْرَةٍ مُسَاوِيَةٍ عَلَى الْإِخْتِيَارِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. فِي الْوَاقِعِ، يَبْدُو هَذَا التَّصْرِيحُ لَيْسَ فَقَطْ شَبَهَ بِيلاجِيٍّ، بَلْ بِيلاجِيًّا، مِمَّا أَدَّى إِلَى تَصْرِيحِ بَعْضِ اللَّاهُوتِيِّينَ بِأَنَّ رُومًا لَمْ تَتَخَطَّ الْبِيلاجِيَّةَ يَوْمًا.

الدكتور أ.ز. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو ( St. Andrews Chapel ) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح ( Reformation Bible College ). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".